مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies

namacenter

أوراق نماء

حاجتنا إلى القدوة في التربية

-يوسف عكراش

حاجتنا إلى القدوة في التربية

لا شك أن التربية على النهج السليم والخلق العظيم والتزام قيمه وتمثل مبادئه حسًّا ومعنًى، تحتاج إلى القدوة المثالية إذ هي الشيء الكفيل بضمان الطريق السليم إلى مستقبل زاهر وزاخر يحفظ عقول الناشئة وقيمهم ودينهم، فتهذب الأفراد وترقى بهم، كما تجعل المجتمع وحدة مترابطة عقائدياً ووجدانيًّا واجتماعياً. وإن النأيَ عن اتخاذ القدوة المثالية ونبذها وراء الظهور لسبيل جعل المجتمعات الإسلامية تعاني اليوم من التخبط والتذبذب في اختيار المنهج الذي يصلح للتربية بعدما تركت منهجها، فتراها تارة تسلك هذا المنهج وتارة ذاك المنهج، وكلما رأت مجتمعًا متفوقًا ويبني حضارة انبهروا به وأخذوا منه وعنه وحذوا حذوه وسلكوا مسلكه، متناسين مناهجهم السامية وقيمهم الفطرية النابعة من كتاب الله وسنة نبيه، التي راعت جميع جوانب الإنسانية[1] بكل ما تحمل الكلمة من معنى في كل مستوياتها حيث لم تغفل جانبًا، بل أولت كل جانب حقه ومستحقه فأقامت حضارة راقية بشقيها المعنوي والحسي.

(١) وهي ما يُميِّز الإنسان من خصائص وصفات، تجعله بدورها يختلف عن بقيّة أنواع الكائنات الحيّة، ويمكن القول إنّ الإنسانيّة هي ما يُضادّ البهيميّة أو الحيوانيّة. كما أنّه يمكن تعريفها بأنّها ما يتميّز به المرء من الأعمال الصالحة التي يقوم بها، أما اللّاإنسانيّة فهي ما يُشار إليها عادة بأنّها إهدارٌ لقيمة الإنسان وحقوقه، والتعامل مع البشر بعنصريّة، وبقسوة.

ولذا كان المنهجُ الرباني في إصلاح البشريَّةِ جمعاء -أفرادًا ومجتمعات- وهدايتها إلى طريقِ الحق المبين والخلق العظيم معتمدًا على وجود القُدْوَةِ المثالية التي تترجم تعاليم الإسلام ومبادئ الشريعة إلى سلوك عمليٍّ واقعي على مرأى من البشر قاطبة، وقد كان رسول الله -ﷺ- هو القدوةَ التي تترجم المنهج الإسلامي إلى صورة مشاهدة وحقيقة مرئية، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾،[1] ولما سُئِلَت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- عن خُلُقِهِ -ﷺ- قالت: كان خُلُقُهُ القُرآنَ.[2]

ومن خلال هذا الطرح سنحاول تسليط الضوء على أهمية القدوة وحاجتنا الملحة لها في التربية، انطلاقًا من بيان مفهوم القدوة وأهميتها في التربية، ومرورًا بالقدوة في الكتاب والسنة، ثم النموذج المثالي والأكمل الذي لا يسع الأمة سبيل للعدول عنه.

✸ مفهوم القدوة:

إن الحديث عن مفهوم القدوة ابتداءً يدفعنا للحديث عنها من حيث اللغة؛ إذ الألفاظ والحروف اللغوية قوالب للمعاني الاصطلاحية فمن حيث اللغة:

القُدوة والقِدوة تقرأ بالضم والكسر وهي تعني من يقتدي به الإنسان ويستن بسنته، فيقال: فلان قدوة يُقتدى به، والقدوة: المثال الذي يتشبه به غيره، فيعمل مثل ما يعمل، ويحذو حذوه في كل صغيرة وكبيرة. والقدوة مثل الأسوة، ويقال: تأسيت به إذا اقتديت به، واتبعته في جميع أفعالي وأقوالي، ويعني الاقتداء في كلام العرب بالرجل، اتّباع أثره والأخذ بهديه، فيقال: «فلان يقدو فلاناً» إذا نحا نحوه وسار على دربه واتبع أثره.[3]

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٢) أخرجه مسلم (٥١٢/١-٥١٣) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: جامع صلاة الليل (٧٤٦/١٣٩)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٣٠٨)، والنسائي في الكبرى (٤١٢/٦) كتاب التفسير، باب: تفسير سورة المؤمنون، وأحمد (٩١/٦)، (١١٢/٦) من طريق آخر عن عائشة.

(٣) لسان العرب، مجلدا، ص٦٤، والجواهري في الصحاح، مجلد٦، ص٢٤٥.

قال ابن فارس رحمه الله قدو: القاف والدال والحرف المعتل: أصل صحيح يدلُّ على اقتباس بالشيء واهتداء، ومُقادَرة في الشيء حتى يأتي به مساريًا لغيره. من ذلك قولهم: فلان قُدوةٌ (بضم القاف وكسرها): يقتدى به. ويقولون: إن القَدْوَ: الأَصل الذي يتشعب منه الفروع[1]. وقال ابن منظور -رَحِمَهُ اللهُ-: «والقُدْوَةُ والقِدْوةُ: الأُسوةُ. يقال: فلانٌ قُدوة يُقتدَى به».[2]

ويظهر لنا جليًّا مما تقدم أن القدوة تعني كل ما يتخذه الإنسان مثالاً حياً يهتدي به في سائر أحواله عقيدةً وسلوكًا ويعتبر مرجعًا في حياته.

✸ اصطلاحًا:

فالقدوة هي مثال من الكمال النسبي المطلوب، يثير في الوجدان الإعجاب فتتأثر به تأثراً عميقاً من حيث الحس والمعنى، فتنجذب إليه بصورة تولد في الإنسان القناعة التامة به، والإخلاص الكامل له، فيصبح الامتثال والاقتداء جبلة وسجية لا ينأى عنه الإنسان أبدًا.

✸ المصطلحات المقاربة:

الأسوة: قال ابن منظور -رحمه الله-: الأُسوةُ والإسوةُ: القدوة، ويقال: ائتسِ به، أي: اقتدِ به، وكن مثله. قال الليث -$-: فلان يأتسي بفلانٍ أي يرضى لنفسه ما رضيهُ ويقتدي به[3] فالأسوة هي القدوة سواء بسواء.

(١) معجم مقاييس اللغة: ٥ / ٦٦ - ٦٧ باختصار.

(٢). لسان العرب: ٥ / ٣٥٥٦

(٣) .١٤ / ٣٥ لسان العرب

✸ القدوة في القرآن الكريم:

يعتمد القرآن الكريم أسلوب التربية بالقدوة حينما أمر الله سبحانه نبيه بالاقتداء بمن سبقه من الأنبياء والمرسلين، فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾[1]، بمعنى: أيها الرسول اتبع ملة هؤلاء الأنبياء الأخيار، وقد امتثل فاهتدى بهدي الرسل من قبله وجمع كل كمال فيهم فاجتمعت لديه فضائل وخصائص فاق بها جميع العالمين.[2]

وأكد على أسلوب التربية بالقدوة على أسلوب في أكثر من موضع فطلب من المؤمنين اتخاذ الرسول -ﷺ- القدوة والأسوة الحسنة، وطالب المؤمنين بطاعته واتّباعه الاتّباع المطلق، قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾.[3]

كما حذر القرآن الكريم في ثناياه من يحيد عن المنهج العظيم وبيان حسرة من يعدل عنه إلى غيره، قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨﴾.[4]

✸ القدوة في السنة النبوية المطهرة

لقد أكدت السنة النبوية المطهرة مبدأ القدوة في التربية وجعلته أصلًا تتفرع من خلاله الدعوة إلى الاقتداء بكل من دعا الناس إلى الخير والصلاح والهدى الذي جاء به النبي الكريم، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الآتي: ما أوصى صلى الله عليه وسلم باتباع سنته وسنة الخلفاء

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.

(٢) تفسير السعدي ٤٩/٢.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٢١.

(٤) سورة الفرقان، الآية ٢٧-٢٨.

الراشدين من بعدهم، حيث بينت السنة النبوية في أكثر من حديث آثار هذا الاتباع الحميدة والطيبة على الفرد المسلم في حياته التربوية ويدركها ويلمسها في ذاته عندما يقتدي بصالح فيتأثر به ويظهر ذلك في سلوكه الحياتي وفكره ومنهجه، وقد قيل الصاحب ساحب، وهي أيضًا (أي: القدوة الحسنة) سبب فعّال في مصير الإنسان وسعادته الدنيوية والأخروية، فإن الإنسان يتأثر بقدوته ويصطبغ بصبغته فكراً ومعتقداً وسلوكاً، وقد برهن على ذلك أيضًا العقل والواقع والتجربة.

✸ أهمية القدوة في التربية

لقد أولت تعاليم الإسلام جانب القدوة اهتماماً كبيراً حيث لم يقف الأمر عند إنزال الكتاب على الرسل الكرام والحديث عن قصصهم وعرض سيرتهم، وذكر ما أمرو به وما نهوا عنه، بل جاء الأمر باتباعهم والاقتداء بهم في سائر أحوالهم، فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾.[1] كما تكمل أهمية القدوة من خلال ما يلي:

- القدوة المثالية تثير في نفوس الآخرين الإعجاب والمحبة التي تتهيج معها دوافع الاتباع والتنافس المحمود فيتولد لديهم حوافز قوية لأن يتمثلوا أخلاقها السامية وقيمها الراقية.
- القدوة الصالحة المتحلية بالقيم والمثل العليا الحميدة تعطي الناس قناعة بأن بلوغ هذا المستوى الرفيع من الأمور ممكن وغير مستحيل، وأنه في متناول الإنسان كيف ما كان دون ميز أو حيف.
- واقع الناس اليوم يشكو القصور والانحراف

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.

والضعفَ والهوانَ رغم انتشار العلم، ما لم يقم بذلك العلم علماء وقادة عالمون مخلصون يصنعون من أنفسهم قدوات في مجتمعاتهم، يترجمون ذلك العلم إلى واقع عملي يفهمه الجميع، وهذا يُسهّل في إيصال المعاني الأخلاقية، ويحدث التغيير المنشود إلى الأفضل.

- أهمية القدوة الحسنة في الحياة: توفِّر القدوة الكثير من الوقت والجهد على الوالدين في تربية أبنائهم ومحاولة غرس السلوكيات الجيدة فيهم. فعندما يختار الطفل القدوة الجيدة فإنه يقلِّدها في سلوكياتها. وإنتاج أفراد يتسمون بالسلوكيات والصفات الجيّدة مثل المثابرة على العمل والنجاح، بعيداً عن الصفات السلبية وغير الجيدة. وبناء مجتمع متماسك وقوي يستطيع مواجهة التهديدات الخارجية.

غياب القدوة الصالحة من المجتمع عامل رئيس في انتشار المنكرات واستفحالها وإفشاء الجهل بين الناس، ومن هنا تكمن أهمية القدوة الصالحة، فكلما ازدادت القدوات انتشر العلم واختفت المنكرات، لذلك فنحن نحتاج إلى قدوات يدعون الناس بأفعالهم لا بأقوالهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾.[1]

لا ينكر أحد ما للمدرس القدوة من الأثر الكبير في الرقي وإصلاح المجتمع الإنساني علمياً وخلقياً وأدبياً وصحياً واجتماعياً؛ لأن أثر المدرس الصالح يظهر على نفوس تلاميذه فيغرس فيهم الفضائل والأخلاق الحسنة وما يراه خيراً للأمة والوطن.

(١) سورة الصف، الآية: ٢-٣.

✸ القدوة المطلقة والمثالية ﷺ

أما الحديث عن رسول الله -ﷺ- فهو القدوة ذات الكمال المطلق والمثالي، حيث كانت حياته مثار إعجاب الجميع مما جعلهم يتأثرون به، بل قد شهد له غير واحد من أعدائه على ذلك، ولقد كان رسول الله -ﷺ- الأسوة الحسنة للناس جميعاً في جميع جوانب الحياة فإذا تفكر الإنسان في أحوال القادة والمصلحين والسياسيين فإذا رسول الله -ﷺ- قدوة بقيادته وصلاحه أروع الأمثلة في هجرته إلى المدينة وإقامته للدولة والمسجد وتأليفه بين الأوس والخزرج وفي سائر غزواته.

وإذا بحث الناس في ميادين التربية وجدوا رسول الله يتربع على عروش المربين، «إذ نجد أن أفضل ممثل لصفة «الرب» لله تعالى هو سيدنا محمد ﷺ، أي هو من يتمثل هذا الاسم من أسماء الله الحسنى حتى بين سائر الأنبياء؛ لأنه كان صاحب فطرة سليمة ومتميزة، ولا شك أن الصحابة الذين تلقوا التربية عنه مباشرة واقتدوا به كان من أفضل الناس بعد الأنبياء. فليس من الإمكان رؤية أو تنشئة نماذج مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي **رضوان الله عليهم أجمعين**»[1] إذ هو المربي الكريم والقائد العظيم والمعلم الحليم الذي ربى أصحابه الكرام على الفضيلة والقيم العليا النبيلة وصدق الشاعر إذ قال:

أتطلبونَ منَ المختَارمعجزَة يَكفيهشعبمنالصحراءأحيَاه[2]

ولقد اعتلى -ﷺ- أعلى مراتب الأخلاق والعلم؛ لأنه تربية رب العالمين ليكون السراج المنير والمثل الأعلى والقدوة العظمى للإنسانية جمعاء، أدبه ربه فأحسن تأديبه، فكان قرآناً نابضاً حياً متحركاً، وحينما سُئلت عائشة عن أخلاقه أجابت: كان خلقه القرآن.[3]

(١) النور الخالد محمد مفخرة إنسانية، محمد فتح الله كولن، ص٢٨٥

(٢) التربية الوقائية في الإسلام، خليل الحدري، ص٢٠٧.

(٣) أخرجه مسلم ٥١٣/١.

وكان -ﷺ- في كل شيء كأنه معجزة خالدة، وقدوة مطلقة، فإذا نظرت إلى عبادته وجدته رجل عبادة إذ كان أقرب الخلق لله تعالى، وإذا وقفنا على العلم نجد «أن ما أتى به النبي -ﷺ- للساحة العلمية وما أَكْسبه للعلم يُعَدُّ من مظاهر رسالته العالمية الشاملة»،[1] حيث كان أفقه الناس وأعلمهم على الإطلاق ويحث الناس على العلم والتعلم ويحضهم على اكتسابه، وإذا جاهد وحمل السلاح قلت: إنه رجل حرب وجهاد تكفي قيادته للجنود الغازية في سبيل الله، إنها تفوق عشرات القواد، «وهكذا هم المقربون والمحبوبون عند الله تعالى أقوياء في الروح وفي الجسد أي أقوياء في أبدانهم وقلوبهم، وهكذا يتبين لنا أن رسول الله -ﷺ- لا يقول لنا صوموا لكي تضعفوا، واضعفوا لكي تكونوا أقرب إلى الله وتحصلوا رضاه، بل يحارب هذه الرهبانية بقوانين الفطرة الإلهية ويوجهنا إلى هذه القوانين»[2]. أما في حياته الزوجية كان رئيس عائلة بل أسعد عائلة في تاريخ الدنيا كلها، تشمل تسع نسوة يعدل بينهن ويعاملهن أكرم معاملة، وليس هناك مثيل للقيمة التي أعطاها رسول الله -ﷺ- المرأة لا من قبل ولا من بعد، يلاطفهم ويكرمهم ويستشيرهم ويأخذ رأيهم، ويحسن معاملتهم. أما الحديث عن دعوته فكان واعظاً ومرشداً أميناً يصدع بالحق ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكان متحلياً بمحاسن الأخلاق وهي التي جعلت منه أكبر قدوة للبشرية في تاريخها الطويل، بل كان -ﷺ- مربياً وهادياً بسلوكه الشخصي قبل أن يكون بالكلام، لهذا أمر الله المؤمنين باتباع الرسول وطاعته، وجعل هذا من مؤشرات الحب في الله،[3] قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.[4] وغيرها من المواقف والأحداث في السيرة العطرة التي تبيّن أنه -ﷺ- سيد العظماء وخير الحكماء والعلماء. وعليه فنحن أمام تميز

(١) النور الخالد محمد مفخرة إنسانية، محمد فتح الله كولن، ص ٣١٨.

(٢) النور الخالد محمد مفخرة إنسانية، محمد فتح الله كولن، ص ٣١٨.

(٣) انظر: منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، الجزء الأول، ص١٨٢.

(٤) سورة آل عمران، الآية:٣١

وامتياز اختص الله به نبيه محمدًا -ﷺ- ليكون القدوة المثالية حيث لا نظير له.

وختامًا فإن التربية بالقدوة من أفضل الأساليب التربوية على الإطلاق وأكثرها انتشاراً قديماً وحديثاً. فهي تعمل على تهذيب الأفراد وإصلاحهم كما تجعل من المجتمع وحدة مترابطة عقائدياً ووجدانيا واجتماعياً وتعمق مفهوم الأخوة الإيمانية، وتستوعب حقوق الأخوة الإنسانية، كما تجعل من الأمة كيانًا متضامنًا ذا قوة وتأثير وفاعلية إلى الأفضل في حياة الفرد والمجتمع، إذ هي صرح شامخ لوحدة الأمة وتماسكها وخاصة أمام التحديات والصعاب والتغيرات وكل المستجدات التي يشهدها العالم قاطبة والأمة الإسلامية خاصة، فتقف وقفة المطمئنة لوعد الله لها بالنصر والتمكين والاستخلاف.

كتبه الأستاذ: يوسف عكراش